

الفصل الثالث:

كنعان والكنعانيون

أسمهان شريح

"يسود في دراسة الآثار الفلسطينية منهجان، أحدهما، منهج دراسة الآثار توراتيًا وبموجبه توظف الأحداث التاريخية والدلالات الأثرية كتقافات الشرق الأدنى لخدمة حادثة دينية، والمنهج الآخر هو دراسة الآثار تاريخيًا، وفيه تؤخذ الأحداث التاريخية والدلالات الأثرية كما هي، أي أنها تعبر عن حضارة إنسانية".

د. "بالو أماتيه"

"وأكثر شيء نبحث عنه هو أساس التاريخ، والحقيقة التاريخية، وفي استطاعتي أن أجادل في التوراة أناسًا كثيرين يريدون أن يزوروا التاريخ ويغيروه".

د. "س. و. هلمز"

"إن على كل من يلج بوابة كنعان، أن يتسلح بالعلم والصبر، وأن يخوض معركة فك ارتباط جدّ قاسية، من أجل تحرير، هذا التاريخ العربي من كل ما ألصق به عمدًا وجهلاً، من كل المخلوقات الطفيلية، ثم ترك مرميًا خلف البوابات المهجورة الرطبة".

د. "أحمد داوود"

أدى الاهتمام المتزايد بالقضية الفلسطينية، إلى نشوء وعي حولها،

وخاصة في أوروبا وأميركا، نتج عنه، في العقود الأخيرة من القرن الماضي، ظهور اتجاهات جديدة في كتابة تاريخ فلسطين؛ والمقصود بفلسطين: هي تلك المنطقة الجغرافية بحسب التحديد الناجم عن اتفاقية سايكس - بيكو المعروفة، بين بريطانيا وفرنسا، ومن الأهمية بمكان التأكيد على أنه لا يمكن الحديث عن تاريخ منفصل لفلسطين بمعزل عن جوارها الطبيعي، حيث لم تكن فلسطين يوماً محدّدة كما هي اليوم.

ترمي هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على تاريخ كنعان والكنعانيين، الأرض والشعب، من خلال عرض موجز للكتابات الكلاسيكية حول هذا الموضوع، ومن ثم تقديم الجديد، سواء أكان هذا الجديد من خلال المنهجية، أي الاتجاهات الجديدة في كتابة تاريخ المنطقة، أم الجديد الناجم عن النظريات التاريخية الجديدة، وتوسيع الاكتشافات الأثرية، والدراسات الأركيولوجية.

ولأغراض هذا البحث، سيتم تقسيمه إلى مقّمة تعرض بإيجاز هذه النظريات والاتجاهات، وثلاثة أقسام يتناول الأول الكنعانيين كشعب، أو سكان المنطقة المعروفة بـ "كنعان". ويتناول القسم الثاني كارض، أو جغرافيا، ثم الحضارة الكنعانية، وأخيراً سوف نعرض لما توصلنا إليه من استنتاجات.

مقدمة:

إن الحركة الصهيونية باستخدامها الجماعات اليهودية في العالم، كمادة لمشروعها الاستعماري، من جهة، وبتحالفها مع القوي الاستعمارية الغربية من جهة أخرى، أقحمت في الصراع مع سكان المنطقة بعداً

تاريخياً أسطورياً، وحضارياً، بدأت تتكشف تأثيراته، وتأخذ منحاً مختلفة، أدت إلى زيادة الوعي والاهتمام، وبالتالي تعميق البحث حول هذا الصراع وجذوره التاريخية.

وكانت النتيجة ظهور اتجاهات جديدة في كتابة وقراءة تاريخ فلسطين والمنطقة التي اقتطعت منها، ما أدى إلى كشف بعض الباحثين الموضوعين الهدف السياسي الكامن خلف الكثير من التلفيق والمغالطات التاريخية المتعلقة بفلسطين، وفي كتابة الشهير "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية يقول روجيه غارودي " إن التبرير اللاهوتي المزعوم للعدوانات المتكررة، بالاعتماد على قراءة أصولية للنصوص الموحى بها، يحول الأسطورة إلى تاريخ^(١).

ويري كيث وايتلام أن " تاريخ فلسطين قد تم تجاهلة وطمسه من قبل الدراسات الكتابية لأن موضوع اهتمامه هو إسرائيل، كما تم تصورهما وتقديمها بوصفها الجذر الأساسي للحضارة الغربية^(٢)، والمقصود بالدراسات الكتابية دراسات الكتاب المقدس لدى الغرب المسيحي، الذي يتكون من التوراة والإنجيل معاً، وهي الدراسات التي تتعاطى مع تاريخ فلسطين القديم وجوارها من منظور عنصري متماه مع منظور التوراة، ولذلك فإن وايتلام يحاول في كتابة تلفيق تاريخ إسرائيل طمس التاريخ الفلسطيني، كما يقول توضيح فكرة مفادها أن التاريخ الفلسطيني القديم موضوع مستقل بحق، ولا بد من تحريره من قبضة الدراسات الكتابية، وبعد أن يقر وايتلام بصعوبة هكذا عمل، فإنه يقرر إن تكوين المفاهيم عن الماضي وتقديمها عمليتان محفوفتان بالمصاعب، ليس بسبب

غموض المعطيات وندرتها فقط، بل بسبب أن بنية التاريخ ذلته المكتوب منه أو الشفوي في الماضي أو الحاضر هي بنية سياسية^(٣) وبذلك يقر وإيتلام بأن " تاريخ فلسطين " قد تعرض للطمس والتلفيق، وهو الأمر الذي كرس له د. أحمد داوود عددًا في كتبه، في محاولة منه لكشف بعض معالم هذا التلفيق والتزوير.

هذا فيما يتعلق بالمنهجية الجديدة في كتابة، وقراءة " تاريخ فلسطين القديم، أما عن النظريات الجديدة، فتجدر الإشارة إلى نظرية د كمال الصليبي المتضمنه كتابة " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، والتي اعتبرها البعض فتحًا علمياً جديداً، في حين تعرضت النظرية نفسها للمعارضة والحرب الإعلامية من جهات متعددة من الشرق والغرب.

لعل من أهم المفاهيم المتداولة، والتي تشكل سمة مميزة لفلسطين في العصر القديم، مفهومي الكنعانيين، كسكان سكنوا فلسطين منذ القديم، وكنعان، كمكان، أو نطاق جغرافي عايش ضمنه الكنعانيون.

الكنعانيون:

حسب التاريخ الكلاسيكي، فإنه منذ حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أخذت جموع سامية تنتقل إلى المنطقة المعروفة بسوريا ولبنان وفلسطين، من شبه الجزيرة العربية، ويمكن اقتفاء آثار ذلك عند الكنعانيين، الذين سكنوا فلسطين، والفنيقيين، الذين استقروا في لبنان وبعض الساحل السوري، والعموريين الذين استأثروا بسورية الداخلية.

استناداً إلى ذلك، يقول المؤرخ الفلسطيني عارف العارف: إن

الكنعانيين هم إحدى القبائل العربية، التي خرجت إلى بلاد الشام من شبه الجزيرة العربية خلال الألف الثالث قبل الميلاد، وقد سميت فلسطين بأرض كنعان نسبة إليهم، وقد استوطنوا معظم أنحاء فلسطين، وبنوا فيها مدناً محصنة، منها القدس، وشكيم، وبيت شان، ومجدو، واشكلون، وغزة، وغيرها، وكانوا يجيدون الزراعة وصناعة الفخار والنسيج، وصناعة البناء، وقد عرفوا المعادن والتعدين، وشرعوا القوانين، كما عرفوا حروف الهجاء، والكتابة والتأليف، وكانوا يعبدون الأصنام، ومن آلهتهم المعروفة " بعل " إله الشمس (٤).

الجدير بالملاحظة، في هذا السرد التاريخي، أنه يوحى، وكأن هذه المنطقة كانت خيالية من السكان، رغم اتفاق العلماء، على أن الإنسان الذي عاش في بداية العصر الحجري القديم الأول، حوالي ١.٥٠٠.٠٠٠ سنة منذ الوقت الحاضر، هو ما يسمى بالإنسان منتصب القامة، ودلت المخلفات الأثرية على أن هذا الإنسان قد عاش في غربي وشرقي نهر الأردن.

مما جاء في الموسوعة الفلسطينية بخصوص الكنعانيين: أما الكنعانيين، فيختلف العلماء في أصلهم، فمنهم من قال إنهم الأقوام الذين تسلموا بين العموريين، في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد، ويدعوهم كلود شيفر وكاتلين كينون " حملة الأطواق "، منهم من قال إنهم الأقوام العمورية، التي استوطنت في الأراضي المنخفضة من فينيقية وفلسطين، ويقوي الأخذ بالرأي الثاني، الدلائل التي تشير إلى أن " حملة الأطواق "، كانوا في الغالب أقواماً حورية لا سامية، وأنهم جاءوا من الشمال لا من

الشرق أو الجنوب مهبط الأقوام السامية.

والكنعانيون، تصيف الموسوعة، كانوا دون أدنى شك من اصل سامي والمعلوم أن العموريين، الذين جاءوا من الصحراء، شنوا في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد حملت كثيرة على المدن الفينيقيّة والفلسطينيّة، التي ازدهرت في القرن الثالث قبل الميلاد، وتدعي حضارتها حضارة العصر البرونزي القديم، وقد دمرها شر تدمير، وفتكوا بأهلها، وافنؤهم عن بكرة أبيهم، ونشروا الفوضى والخراب في المنطقة لمدة أربعة قرون، وعندما قامت الأسرة الثانية عشرة في مصر في القرن العشرين قبل الميلاد، أعيد النظام الي نصابه، وتأسست مدن جديدة على أنقاض المدن، التي دمرها العموريون، وتدل أسماء بعض المدن على أن اللغة كانت لغة، أو لهجة عمورية، واستوطن بعض العمورين في المنطقة الجبلية، وبقوا على اسمهم، واستوطن البعض الآخر في الأرض المنخفضة فلسطين، وسموا كنعانيين، وكلمة كنعان مشتقة من كلمة كنع ومعناها باللغة الفينيقيّة، أو الكنعانية انخفض، ويشمل عهد الكنعانيين العصرين الأثريين البرونزي المتوسط، والبرونزي المتأخر (٥).

أما المقارنة في هذا الطرح، القائل بأن القبائل القادمة من شبه الجزيرة العربية هي أول من استوطن فلسطين والمنطقة المحيطة بها، فتكمن في اتفاقها مع الطرح الصهيوني، القائل أن سكان فلسطين الأصليين (الفلسطينيين)، جاؤوا من الجزيرة العربية، وعليهم العودة من حيث أتوا، في تبرير لسياسة الترحيل والتطهير العرقي، التي ينتهجها

غزاة فلسطين الجدد من اليهود في فلسطين، كي تكون دولة يهودية خالصة.

وجاء في كتاب د فيليب حتي، " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين "، أن الكنعانيين الذين سماهم اليونان بالفينيقيين فيما بعد، هم ثاني جماعة سامية لعبت دوراً هاماً في تاريخ سوريا بعد الأموريين.

الكنعانيون والأموريون ينتسبون إلي موجة الهجرة نفسها، وبذلك فإن الاختلاف العرقي معدوم بينهم، وكان مركز الكنعانيين الجغرافي في الساحل، ولذلك كانوا متجهين إلي مصر (حضارياً).

يري د. حتي، أن السبب في أن اليونانيين أطلقوا على الكنعانيين اسم الفينيقيين، لأن الكنعانيين، كغيرهم من الشعوب القديمة، كانوا يتألفون من جماعات تشعر باختلافاتها القبلية، والمحلية أكثر مما تشعر بوحدتها القومية، وكان عليها أن تنتظر أجنبياً ليعطيها اسماً عاماً^(٦).

وبذلك فإن د حتي، فضلاً عن العنوان الملتبس الذي اختاره لكتابه " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين "، حيث يقر التقسيم الحالي، الذي لم يكون موجوداً قبل اتفاقية سايسكس - بيكو، يتفق في رايه هذا عن الكنعانيين، مع رأي المستشرق مارتن نوت القائل بأنه " كظاهرة طبيعية، البلاد (أرض إسرائيل، أو فلسطين)، لم تكن أبداً كياناً متجسداً مستقلاً، كما أنها لم تسكن من قبل أناس متجانسين.. ولذلك فإن تعبير أرض إسرائيل يمكن أن يصلح إلي حد ما كتوصيف مرن للمنطقة^(٧).

يري كيث وايتلام مؤلف كتابه " تلفيق إسرائيل التوراتية طمس

التاريخ الفلسطيني، أن تورط الخطاب الكتابي الحديث في الصراع، وادعاءات الدولة الحديثة (إسرائيل) بأن المنطقة هي "الوطن الطبيعي" انعكس في تصور الماضي، الذي تحل فيه إسرائيل محل فلسطين، وينسخ التاريخ الإسرائيلي مرحلتي ما قبل التاريخ، والتاريخ الكنعاني، فليس ثمة فلسطينيون قداماء، بل هناك سكان ما قبل التاريخ، أو كنعانيون فقط، وبالتالي فليس شئ اسمه (التاريخ الفلسطيني) ^(٨).

أما د. كمال الصليبي، فإنه يؤكد أن الكنعانيين، الذين وصلوا فلسطين قبل الفلسطينيين، واليهود، أعطوا اسمهم لأرض كنعان (كنعان)، على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين.

ويري سابيتنو موسكاتي، أن تسمية كنعان، والكنعانيين إنما جاءت من التوراة، فيقول في كتابه الحضارات السامية القديمة: تسمى التوراة المنطقة المكونة من فلسطين وفينيقيًا، كنعان، وتسمى سكانها الكنعانيين، ومن ثم تعارف العلماء على إطلاق اسم الكنعانيين على أسلاف إسرائيل، وجيرانهم الساميين الذين استوطنوا الظهير السوري ^(٩).

لذلك، فإن موسكاتي، يرى أنه من المستحسن "أن يعالج في المستقبل تاريخ سوريا وفلسطين، أو سوريا بمعناها الواسع، وهو اصطلاح موفق أخذ به الجغرافيون، على أنه موضوع واحد دون أية حدود صناعية.. وهنا لا حاجة به إلى اصطلاحات كالفظ الكنعانيين ^(١٠).

استنادًا إلى ما سبق، وعلي ضوء أطروحة د. كمال الصليبي القائلة بأن "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، وأن موطن بني إسرائيل هو

الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية، ويرى د. أحمد داوود أن المكتشفات الأثرية من أقصى شمال سوريا الطبيعية إلى أقصى جنوبها، لم تشر إلى أي وجود كنعاني فيها، ولم تأت على أي ذكر لكنعان، وأما ما يزعم البعض من أن الكلمة وردت في الأسطر القليلة المكتشفة على ما دعي بتمثال إدريمي في الألاخ، فهذا زعم باطل، إذا أن الكلمة هي "قبناني"، وتعني مقتنياتي، ملكي، وليست "كنعان".

ويضيف د. داود: إن المستشرقين الاستعماريين، هم الذين نقلوا الأحداث التوراتية العشائرية، من جغرافيتها الضيقة، في عسير من شبه جزيرة العرب، وحولوها إلى دول، وشعوب، وإمبراطوريات تغطي سوريا الطبيعية كلها، وبقيت تسمية "الكنعانيين" مصطلحاً توراتياً، لا علاقة له من قريب أو بعيد بكل المكتشفات الأثرية فيها^(١١).

كما يعتبر د. دواود "السامية" بدعة يهودية حديثة، وأن الساميين فرع من فروع العروبة. وهو يوضح وجهة نظره بهذا الصدد على الشكل التالي: "إن سام هو ابن نوح، ولم يبتدع لغة، ولم يتكلم لغة غير لغة أبيه، وأمه العربية، ولم يخرج خارج بني قومه العرب، الذين يملأون الساحة العربية منذ آلاف السنين قبله، وما ينطبق عليه ينطبق على أبنائه من بعده؛ فأرام بن سام لم يبتدع لغة، ولم يتكلم لغة غير لغته العربية لغة آباءه وأجداده. وتؤكد جميع مصادر التاريخ العربي أن أبناء آرام جميعاً كانوا من العرب العاربة، أي الشديدي العروبة وأنقيائها. وقد بيدوا جميعاً ما عدا بقية منهم كانت منها عشيرة إبراهيم وذريته من بعده، وهم جميعاً في شبه جزيرة العرب وأنقيائها. وقد بيدوا جميعاً ما عدا بقية منهم كانت

منها عشيرة إبراهيم وذريته من بعده، وهم جميعًا في شبه جزيرة العرب، كما أن سام هو أخو ياقث وحام، فكيف يصح أن يقطع "سام" من بيت أبيه ومن بين إخوته عرقياً ولغوياً؟

أما عبارة السامية، فقد ولدت للمرة الأولى على يد اللاهوتي اليهودي النمساوي شلوتزر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في محاولة صريحة لإضفاء نوع القدسية على مادعاه آنذاك بلغة الكتاب المقدس، مفترضاً أن ثمة ما يدعي بـ "اللغة العبرية" نزل بها كتاب التوراة، وذلك بعد ما لمس حماسة كثير من العلماء، والباحثين اللغويين، إلى دراسة اللغات الشرقية القديمة، ثم ما لبث أن عبر عن نظريته بالفكرة المعروفة التالية: من البحر المتوسط إلى الفرات، ومن أراض الرافدين إلى بلاد العرب جنوباً، سادت لغة واحدة، ولهذا كان السوريون والبابليون والعبريون شعبا واحداً، وكان الفينيقيون (الحاميون) أيضاً يتكلمون هذه اللغة، التي أود أن أسميها اللغة السامية، وهكذا، تلقف هذه البدعة لاهوتيون يهود آخرون، أخذوا على عاتقهم كتابة تاريخ الشرق العربي، والإسلامي القديم، بصورة يبرزون فيها ما دعوه بالعبريين واليهود، ويسفهن العرب وتاريخهم (١٢).

وبناء على ذلك، فإن تسمية الكنعانيين كشعب أو جماعة بشرية، مازالت رغم كم الكتابات، والدراسات حولها، غير واضحة المعالم بعد، ولم يصار إلى تعيين وتعريف واضح لها، والسبب الرئيسي الكامن وراء هذا الإشكال، يتمثل بالعامل السياسي بالدرجة الأولى.

هذا ماكان بالنسبة للكنعانيين، فماذا عن كنعان الأرض، التي تجمع

المصادر التاريخية الكلاسيكية على أنها فلسطين الحالية، من أين جاءت التسمية؟ وماذا تعني؟

كنعان الأرض:

يذكر د. قليب حتي، أن اسم بلاد كنعان، الذي كان يعتبر حتي وقت قريب سامياً، بمعنى الأرض المنخفضة لاختلافها عن مرتفعات لبنان، أصبح مشكوكاً في أصله السامي، ويظن أنه من أصل غير سامي، والاشتقاق الجديد Knaggi يجعله حوري الأصل، بمعنى الصباغ الأرجواني، والصيغة الكادية كناخني Kinakhni وفي مسمارية رسائل تل العمارنة كيناخي Kinakhki، وبالفينيقية كنع والعبرية كنعان، أي بلاد الرجوان، وبعد أن أطلق اليونان على الكنعانيين اسم فينيقيين (حسب حتي)، أصبحت كلمة فينيقي مرادفة لكنعاني^(١٣).

وقد أطلق اسم كنعان، أول الأمر، على ساحل وغربي فلسطين، ثم أصبح الاسم المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية، وقد تأسست مدن أريحا، وبيت شان، ومجدو قبل عام ٣٠٠ قبل الميلاد، كذلك، فقد ظهرت في الكتابات الأثرية في النصف الأول للألف الثاني، مدن أخرى، لها أسماء سامية معروفة، يمكن اعتبارها كنعانية، مثل عكو وصور، وجبله، وأركة، وسيميرا^(١٤).

أما د. معاوية إبراهيم، فيري أن فلسطين كانت قد عرفت منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد، باسم أرض كنعان، كما نصت عليها تقارير قائد عسكري عند ملك ماري، ووردت بوضوح في مسلة أدريمي ملك الآلاخ (تل عطشانة)، منذ منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وتقدم الموسوعة الفلسطينية "تحديدا أكثر للمنطقة المعروفة بـ "أرض كنعان"، وما جاء فيها حول هذا الموضوع: كنعان اسم أطلق على المنطقة الساحلية، التي تقع بين مصب نهر العاصي شمالا، وحدود المملكة المصرية جنوبا قرب العريش، وتضم هذه المنطقة فلسطين، وماسمي فيما بعد فينيقية^(١٥).

ويقول د حتي، أن طبيعة أراضي كنعان، وموقعها الاستراتيجي بين مراكز الدول الكبرى، التي قامت في وادي النيل، ووادي الدجلة، وآسية الصغرى، لم تمكن الكنعانيين، قط، من النجاح في تكوين دولة قوية موحدة، فكانوا بدلا من ذلك ينتظمون في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك، وصل إلى الملك، غالبا، بعد انتسابه إلى طبقة الأشراف الملاكين، وكانت كل جماعة تتجمع حول مدينة محصنة بأسوار ذات شرفات، وأبراج للدفاع، يمكن لسكان الريف، والمجاورين، أن يلتجئوا إليها وقت الخطر، وأن يقصدها وقت السلم، لتكون سوقا لهم، ومركزا اجتماعيا، وإضافة الي ذلك، كانت هذه المدن بمثابة مكان للدفاع الرئيسي ضد غزوات الجيران الأقوياء، أو غارات البدو الرحل.

قد انتشرت المدن الكنعانية الأولى، على طول الساحل من جبل كاشيوس حتي الكرمل في الجنوب، ولكن تعرجات الشاطئ القليلة، جعلت عدد الموانئ الطبيعية محدودا، كما أن جبال أمانوس، وكاشيوس في الشمال، ومرتفعات فلسطين في الجنوب، لم تشكل ترسأ كافيا ضد الهجمات من وراء، كما فعلت جبال لبنان المرتفعة، ولذلك، فإن المدن العظيمة، التي قدر لها البقاء، تجمعت وازدهرت في سفح جبال لبنان،

وهي طربلس وبوترس (البترون)، وبيبلوس (جبيل)، وبيريثوس (بيروت)، وصيدا وصور، هذه المدن، بالإضافة إلى عرقة، وسيميرا، واردوس (أروادا) في الشمال.. وغيرها من المدن، كانت تشكل مجموعة من ممالك المدن المستقلة الصغيرة، التي تكفي نفسها بنفسها. وفي سوريا الجنوبية، تقع غزة وعسقلان على الساحل، ولكن هنالك عدداً من المدن الكنعانية في الداخل، مثل جازر ولاكش ومجدو وهازور وشكيم وأورشليم، وقد ذكرت هذه المدن، وكثير غيرها في تقارير تحتمس الثالث (في القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، ورسائل تل العمارنة، ويوجد وصف لها في سفر يشوع والقضاة^(١٦).

وبذلك فإن الأرض التي أطلق عليها اسم بلاد كنعان، كانت تتجاوز فلسطين الحديثة، وتمتد لتضم أجزاء واسعة من لبنان وسوريا الحاليين. وبالتالي، فإن ما ذكر في التوراة حول تدمير بلاد الكنعانيين، يصبح غير صحيح.

واستناداً إلى المكتشفات الأثرية، يدحض البروفيسور زئيف هيرتسوغ، المدرس في قسم آثار وحضارة الشرق القديم في جامعة تل أبيب، ماجاء في كتاب حتي بالقول، " التوراة تضخم قوة وحصانة المدن الكنعانية، التي تم احتلالها، ولكن الآثار كشفت النقاب عن مواقع غير محصنة، حيث وجدت في أحيان كثيرة مباني قصر الحاكم فقط، وليس مدناً حقيقية، الحضارة المدنية في فلسطين في العهد البرونزي المتأخر، انهارت في عملية استمرت مئات السنين، وليس بفعل الاحتلال العسكري^(١٧).

بينما تتلخص رؤية د كمال الصليبي بعنوان كتابه " التوراة جاءت من جزيرة العرب "، فهو يعتبر أن أحداث التوراة جرت في جزيرة العرب، وليس في فلسطين، ويعتبر د. الصليبي، أن الكنعانيين نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية، عندما تفرقت قبائلهم في الأرجاء في زمن مبكر، ليعطوا اسمهم لأرض كنعان (كنعان)، على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين في المنطقة التي سماها الإغريق فينيقيا (على اسم الفينيقي في عسير)، وكون فينيقيا قد سميت كنعان من قبل سكانها أنفسهم، أمر معروف من خلال قطعة نقد هلينية من بيروت تصف هذه المدينة بالفينيقية بأنها، في كنعان وبالإغريق بأنها في فينيقيا " (١٨).

واستنادا الي هذه الأطروحة، يستهل د أحمد داوود رؤيته حول موضوع الكنعانيين، بالاستشهاد بما جاء في الإصحاح الثالث عشر من سفر التكوين، وذلك عندما ضاق المرعي بمواشي إبراهيم ولوط، فطلب إبراهيم، من ابن أخيه لوط، أن يختار مرعي آخر لمواشيه، يقول سفر التكوين، " وكان للوط السائر مع إبرام غنم وبقر وخيام، فلم يحتمل ضيق الأرض أن يقيما فيها معاً.. فكانت خصومة بين رعاة ماشية لوط، والكنعانيون والفرزيون حينئذ مقيمون في الأرض، فقال إبرام للوط لا تكون خصومة بيني وبينك ولا بين رعائي ورعاتك، إنما نحن رجالان أخوان، أليست الأرض كلها بين يديك، اعتزل عني إما إلي الشمال فأتيا من، أو إلي اليمين فأتيا سر.. فاحترار لوط لنفسه مكانا إلي المشرق، واقام إبرام في أرض كنعان.. وقال الرب لإبرام بعد أن فارقه لوط: ارفع طرفك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً،

إن جميع الأرض التي تراها لك أعطيها لك ولنسلك إلي الأبد".

فانتقل إبرام بخيماته حتي جاء، وأقام في بلوط ممرا. ثم يحدد له هذا المكان المرعي، في موضع آخر من سفر التكوين "من نهر مصر إلي النهر الكبير نهر الفرات" (١٩).

ويعقب د. داوود على هذا النص بالقول: في إمكان أي منا، أن يتصور، كيف يمكن لإبرام الواقف أمام باب خيمته تحت بلوطات ممر، أن يري من الفرات الي النيل، كما صارت في التزيير الصهيوني، والحقيقة أن مرعي إبراهيم كان في سفوح جبل من بلاد غامد، حيث يظل يمينًا أو غربًا على قرية المصريين، ويسارًا، أو شرقًا على وادي الثرات (الفرات) من تلك الجبال، وينحدر شرقا صوب برية العرب (٢٠).

مما جاء في كتاب "العرب والساميون والعبرانيون وبنو إسرائيل واليهود" للدكتور أحمد داوود، وتحت عنوان إبراهيم في ارض كنعان ثم "شخص إبرام من مصر هو وامراته، وكل ماله، ولوط معه إلي الجنوب إلي بيت إيل الي الموضع، الذي كان في خبأؤه في ارض الكنعانيين (٢١).

لننتبه الي التوجه الجغرافي: فأية ارض كنعان هذا سواء في فلسطين، أو في سوريا عمومًا، التي هي في جنوب مصر؟ (٢٢).

بالنسبة للدكتور كمال الصليبي، فإن كنعان (كنعن): آل كنعان (أي اله كنعان) في وادي بيشة، والشعوب الكنعانية كما ورد تعدادها في سفر التكوين: ١٥ - ١٦، تحمل كلها أسماء منسوبة إلي أسماء امكنة في أجزاء مختلفة من عسير، وهي لن تعرف هنا ومدن الكنعانيين، التي أدرجت في

سفر التكوين - ١٩، لتثبت حدود الأراضي الكنعانية، وما زالت باقية أيضا بأسمائها التوراتية هناك، حيث توجد قبيلة، أيضا تحمل اسم القنعان. والقول الغامض في سفر التكوين ١١٠ - ١٨، بأنه " بعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني"، قد يفسر السبب في إمكانية العثور على بعض أسماء المدن التوراتية الكنعانية في الشام، كما في شبه الجزيرة العربية (٢٣).

بعد ذلك، واستنادًا إلى مقالته المؤرخ الشهير هيرودوتس بخصوص الكنعانيين، وموطنهم، يردي د. صليبي أنه مهما كان أصل " فينيقيا"، وهو الاسم الإغريقي القديم لساحل الشام، فإنه استمر في الوجود في موطنه الكنعاني الأصل في غرب شبه الجزيرة العربية، وهو اليوم لقرية اسمها الفينيقا في وادي بيشة، حيث توجد أيضا قرية ال كنعان (٢٤).

أما النص التوراتي، فيشير إلى أن حدود الكنعانيين تمتد، من جهة، من صيدن إلى غزة، مضيفاً أن هذا المكان الأخير يقع باتجاه " جرار " دون أن يوضح ماهو هذا الاتجاه: شمالاً أم جنوباً، شرقاً أم غرباً، ويصف النص ذاته حدوداً أرض كنعان، من الجهة الأخرى كذلك، ابتداء من صيدون، ودون أي تحديد للاتجاه (٢٥).

هكذا، فإن ثمة إشكال حقيقي بالنسبة للمنطقة، التي عرفت باسم كنعان، هل هي في سوريا (الكبرى)، أم في شبه الجزيرة العربية؟ وهو أمر يجب أن يكون حافزاً للتاريخيين والآثاريين للمزيد من البحث، من أجل الوصول إلى جواب مقنع في هذا الموضوع الهام، خاصة أن التنقيبات الأثرية المحمومة في فلسطين وجوارها، لم تستطع حتى اللحظة العثور على أي دليل يؤكد أي وجود لبني إسرائيل، أو اليهود،

الذين تذكر التوراة، أنهم هاجموا مناطق الكنعانيين، واستولوا عليها.

ربما يمكن، مقارنة الإجابة على هذا السؤال، من خلال الاطلاع على " الحضارة الكنعانية " .

الحضارة:

بغض النظر عن التسمية، فإنه مما لا شك فيه أن المنطقة المقطوعة من سوريا، والتي اصطلح على تسميتها بفلسطين إبان اتفاقية سايكس - بيكو، واجزاء من المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧، إبان اتفاقية أوسلو، إن هذه المنطقة وجورها، قد شهدت وجود أقدم الحضارات في العالم، وهي حضارة إنسانية راقية، وعن هذه الحضارة يقول أسد الأشقر: إن المنطقة الجغرافية التي نسميها الهلال الخصيب، أو سوريا الطبيعية " تكون بيئة طبيعية واحدة، وهي بالحضارة التي تبلورت فيها، تعبر عن وحدتها الطبيعية تعبيراً عفويّاً صادقاً، كما تعبر، أيضاً، جميع الموجات العربية، والأقوام غير العربية، التي استوطنت هذه البيئة، سواء في الشرق في وادي الرافدين، أم في الغرب على شواطئ المتوسط، أم في الشمال جنوبي جبال طوروس، أم في الجنوب من البادية صعداً نحو دمشق، والتي تصادمت وتفاعلت، وأنتجت إيجابياً لأمة السورية العربية، ونبذت الشعب اليهودي المتحجر، الذي عصا جميع نواميس التفاعل والانصهار في بيئة طبيعية واحدة (٢٦) .

تمركز الكنعانيون على الشاطئ السوري، وأوغلوا في أرض الجنوب " كنعان "، ثم حولوا بحرهم إلى جزء من القارة الحضارية، التي خلقوها، فكانت " الظاهرة الكنعانية " - كما يسميها أسد الأشقر المدبرة

عن اليابسة، والمندفعة في ابعاد المتوسط، والتي لم تكن عابرة، خفيفة الأثر، كما لم يكن اندفاعها في البحر نوعاً من التلاشي والانتحار.

حسب التاريخ الكلاسيكي، فقد استقر " الكنعانيون " القديمي - سكان فلسطين الأصليين - منذ أقدم العصور في بلادهم فلسطين - كنعان -، وأرسوا دعائم حضارة متميزة، أصبحت فيما بعد أساساً ومرتكزاً لحضارات العالم المتمدن، وكانت دويلات المدن، الكنعانية الفلسطينية، تقوم على أساس سياسي، واقتصادي، واجتماعي، وثقافي، يبلور نمط الحياة الفلسطينية، ويطبّعها بطابع متميز (٢٧).

وكان النظام السياسي، الكنعاني، يقوم على أساس (الدولة - المدينة)، حيث برزت عدة دويلات / " مدن كنعانية " لها نظامها، وسورها المحيط بها والآلهة، التي تميزها، كما كانت أكثر أسماء المدن " الكنعانية "، تنسب إلى الآلهة الكنعانيين.

عن الديانة الكنعانية، فإن الألواح الفخارية، التي عثر عليها أثناء عمليات التنقيب في أوغاريت، والتي تعود إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، قدمت معلومات هامة عن الديانة الكنعانية، التي عرفت آلهة عديدة أبرزها " إيل " كبير الآلهة، ثم شمش " إله الشمس " و " عليان " بعل إله الحياة و " موت " إله الموت، " ورشف " إله الجنود، و " الأصح " إله البرق، والآلهة العظيمة " عشتروت ".

كان جوهر العبادات، لدي " الكنعانيين "، و " الفينقيين "، عموماً، يعكس اهتماماتهم الزراعية، حيث أطلق على هذه الديانة عقيدة الخصب.

وعن هذه الحضارة، يقول جان مازيل: امتازت القبائل الكنعانية المتحضرة، بفتونها الزراعية، وقد جعلنا النصوص التوراتية نحلق في الخيال، أحياناً، من خلال وصفها لبلاد كنعان... وهكذا نشأت سلالة جديدة شيئاً فشيئاً، واقامت في بقاع مختلفة من الساحل مراكز حضارية نشيطة جداً، وهي علائم حقيقية للاتحاد بين التجارة الساحلية، والاستثمار الزراعي. شعب ذو خصائص متميزة (٢٨).

مما جاء في كتاب د. قليب حتي حول الحضارة الكنعانية: عرف الكنعانيون " الزراعة، واستعملوا المحراث، والمنجل، كما اهتموا بالصيد البحري، ودجنوا الحيوانات، مثل البقار، والأغنام، والحمير، والماعز، والخزير، والكلاب، واهتموا أيضاً بالصناعة، فبرعوا بصناعة الخزف، والمعادن، حيث برهنت المكتشفات الأثرية عن معرفتهم بصهر الحديد وصناعة النحاس، والفلولاذ، والبرونز، كما عرفوا صياغة الذهب والفضة، وتفوقوا في صناعة الزجاج، وصناعة الأقمشة، وصباغة الأرجوان.

تبدأ الديانة، واللغة الكنعانيتان، بالظهور من غياب العصور السامية القديمة، حوالي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، غير أن اسلاف الذين سموا كنعانيين، كانوا غالباً يحتلون البلاد قبل ذلك بألف سنة أو أكثر، ويمكن استنتاج ذلك، من أسماء الأماكن، كما أظهره علم الآثار الحديث. وقد تأسست المدن، مثل أريحا، وبيت شان، ومجدو، التي لها أسماء " كنعانية " واضحة، قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وظهر في الكتابات الأثرية في النصف الأول للألف الثاني مدن أخرى، لها أسماء سامية

معروفة، يمكن اعتبارها كنعانية مثل: عكو، وصور، وجبله، وارقة، وسيميرا^(٢٩).

بذلك، فمما لا شك فيه أن ما اصطلح على تسميته بـ الحضارة الكنعانية، مكانها في فلسطين، وليس في شبه جزيرة العرب.

مما سبق، فإن تاريخ فلسطين " وجوارها، ما زال غير واضح المعالم بعد بسبب عدة عوامل يمكن إيجازها بالنقاط التالية:

١- في القرن السابع عشر والثامن عشر، إزداد الاهتمام بتاريخ فلسطين وجوارها، حيث كتبت معظم التقارير الموجودة لدينا من قبل العام دراسي اللاهوت المتعصبين.

٢- بعد انتقاد هولندا أدريان ريلاندا لهؤلاء المتعصبين، صار بالإمكان أن نجد، كتابات أكثر موضوعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

٣- في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ تحول واضح في البحث عن الآثار الفلسطينية، وأصبح العمل الأثري موجهاً من قبل جمعيات، ومؤسسات غربية أنشئت لهذه الغاية، وقد أخذت هذه الجمعيات التوراة منطلقاً لدراساتها وأعمالها الميدانية، كما تضمن بعضها أهدافها ذات طابع سياسي وعسكري.

٤- من هذه الجمعيات " صندوق استكشاف فلسطين "، وكان هدفه المعلن: البحث الدقيق، والمنظم في الآثار، والطبوغرافيا، والجيولوجيا، والجغرافيا الطبيعية، والتاريخ الطبيعي، وعادات، وتقاليد الأرض

المقدسة لغاية التوضيح التوراتي.

٥- ولما كانت التوراة مليئة بالأساطير والاقتباسات، فإنه لا يمكن الركون إليها كوثيقة تاريخية.

٦- إن تفسير المعلومات، والمكتشفات الأثرية من خلال التبني المسبق لما ورد في التوراة، أسفر عن وجود مغالطات وإشكاليات، وأحيانا تناقضات في الكتابات، التي أخذت تدون تاريخ المنطقة.

٧- ومع بروز القضية الفلسطينية، ازداد الاهتمام بتاريخ فلسطين، وظهرت مجموعة من العلماء والباحثين المتحررين من تأثيرات التوراة، والأفكار المسبقة، ما أسفر عن معلومات، ودراسات، اتسمت بشئ من الموضوعية والتجرد، أزدادت بمرور الوقت، رغم الممانعة، التي واجهتها من قبل الدراسات الكتابية (التي تعتمد التوراة مرجعاً).

٨- مع ظهور هؤلاء العلماء والباحثين، بدأت تتبلور اتجاهات وتيارات جديدة في كتابة " تاريخ فلسطين القديم "، وأسفرت في جزء منها، عما يمكن الاصطلاح على تسميته ثورة في هذا الاتجاه، حيث أنها تبطل، وتنفي أفكاراً وقناعات راسخة في التاريخ الكلاسيكي المعروف لفلسطين.

هكذا كانت فلسطين جزءاً وثيق الصلة بسوريا الكبرى، التي شهدت أول حضارة على هذا الكوكب، ولا يمكن بأية حال كتابة تاريخ مفصل لها، كما أن ماوصلنا من هذا التاريخ، كتب من قبل الغرب وبدوافع سياسية، خدمت الأهداف الاستعمارية، ما يتطلب إعادة النظر في هذا

التاريخ، وإعادة كتابته بطريقة موضوعية تخدم طموحتنا كشعب يتوق إلى التحرر، خاصة مع ما يبدو أنه عودة لعصر الاستعمار، والذي تقوده أمريكا هذه المرة.

* * *

مراجع الفصل الثالث

- (١) روجيه غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة حافظ الجمالي، وصباح الجهيم، دار عطية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، ص ١٧.
- (٢) كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممذوح عدوان، مراجعة زياد منى، قدمس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، ص ٢٠.
- (٣) المصدر نفسه، ص ٣٣.
- (٤) خليل السواحري، القدس القديمة تاريخية، صامد الاقتصادي، العدد ١١٠ خريف ١٩٩٧، دار الكرمل، عمان، ص ٣١ - ٣٢.
- (٥) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الثالث، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٨٤، ص ٦٦٦ - ٦٦٧.
- (٦) د. فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد، عبد الكريم رافق، الجزء الأول، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ص ٨٧.
- (٧) المصدر نفسه، ص ٨٨.
- (٨) كيث وايتلام، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩.
- (٩) سبتيو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦، ص ١١٤.
- (١٠) المصدر نفسه، ص ١١٥.
- (١١) د. أحمد داوود، العرب والساميون، والعبرانيون، وبنو إسرائيل، واليهود، دار المستقبل، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩١، ص ١١.
- (١٢) المصدر نفسه، ص ٦٣ - ٦٥.
- (١٣) حتى، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧.
- (١٤) المصدر نفسه، ص ٨٨.
- (١٥) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦٦.
- (١٦) د. حتى، مصدر سبق ذكره ص ٨٩.
- (١٧) زنيف هيرتزوغ، الحقائق تكتب التوراة، موقع google الإلكتروني، عن هارتس.
- (١٨) د. كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٥، ص ٣٣.
- (١٩) الكتاب المقدس، الجزء الأول، تكوين ١٥: ١٨.
- (٢٠) د. أحمد داوود، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩ - ١٠٠.

- (٢١) تكوين ١٣: ١ و ٣.
- (٢٢) داوود، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.
- (٢٣) الصليبي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٨.
- (٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٨.
- (٢٥) تكوين ١٠: ١٩.
- (٢٦) أسد الأشقر، الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي، الجزء الأول، القسم الثاني، منشورات مجلة فكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٠.
- (٢٧) عبد الحكيم الذنون، بدايات الحضارة، دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٣، ص ٧٦ - ٧٧.
- (٢٨) جان مازيل، تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، ترجمة ربا الخش، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٢٣ - ٣٣.
- (٢٩) د. فيليب حتى، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧ - ٨٨.
